

الأدب في سيرة أعلامه :

ملتين ...

[الاقتباس من المائدة التي عنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

- { -

—><—>—><—>—



طفولة ملتين ونشأته

وأحدثت الوراثة والبيئة أثرهما في جون ملتين، فأحب الأدب وأحب الموسيقى كما أحبهما أبوه، وظهرت فيه منذ صغره تلك النزعة الاستقلالية التي طرد بسببها الأب من كنف أبيه . ولا ريب أن جون ملتين قد حرص على أن تنمو هذه النزعة الموروثة في نفس ابنه، وآية ذلك أنه لم يشأ أن يجعله على ما لا يحب فتركه وشأنه حين أعرض عن الالتحاق بالكنيسة . والحق أن تزوج ملتين إلى الاستقلال سينمو مع الزمن حتى يصبح من أبرز صفاته .

وكان إعجاب جون ملتين بابنه عظيماً، وكذلك كان إعجاب أصحاب أبيه به، فما سمعوا أفعاله التي ينظمها وهو في الثانية عشرة من عمره إلا أفاضوا من ثنائهم عليه، وما رأوا إقباله على الدرس

إلا تحدثوا بنباهة مستقبله ؛ وإنهم ليرون سمات المبكرة تخرج على عياء الأبلج الجليل وهو بعد في سن اللب واللاهو ... وأحدثت كثرة الثناء عليه أثراً قوياً في نفسه سوف ينمو على مر الأيام ؛ فقد داخله شعور منذ طفولته أنه فوق مستوى غيره من الأطفال، وأنه سوف يندو رجلاً عظيماً، وكان يقوى شعوره بنفسه وإحساسه بمقدرته كلما ازداد اطلاعه واتسع مجال ثقافته . وكان أبوه عظيم الثقة في كفاية ابنه ومقدرته، فعول الأبدخر وسماً في نشئته ليكون رجلاً عظيماً، فاختر له مربية يعلمه في المنزل هو توماس ينج، وأرسله إلى مدرسة قريبة هي مدرسة سنت بول ؛ وكان للمربي الذي يتعمده في البيت شهرة في فنه فائقة كما كان (لاسكندر جل) رئيس المدرسة التي ألحق بها صيت عظيم، يمتدح الناس أسلوبه وفنه في التربية والتعليم .

وكان أبوه إذا فرغ من توثيقه ومن الحانه يمينه بنفسه على فهم ما يقرأ ويرشده إلى الكتب التي تلائم مزاجه وطبعه، وكذلك كان يعلمه الموسيقى إذ أنس منه إقبالاً شديداً على سماع الألحان وتذوقها وفهم تأليفها .

وشهد مربيه في المنزل ومعلموه في المدرسة أن عقل الصبي أكبر من سنه، وأن له إلى الأدب ميلاً قوياً، وأن ذوقه الأدبي مولود فيه، فهو جزء من نفسه، وهو قوام إدراكه وحسه، وما وقعت عيننا امرئ عليه إلا تبيننا فيه شاعر الفد ؛ فالشواهد فيه على ذلك بيّنة ممتدة، تطالع المرء في تأمله وتفكيره وفي عذوبة حديثه وسعة ثقافته وجمال عبارته وإشراقها، وقدرته منذ حداثة على اختيار اللفظ الجميل وقعه في النفس والذهن، وانفعال نفسه للموسيقى وللبلوغ من القول منشوره ومنظومه، هذا إلى ما تتم عنه ملامح وجهه الوسيم وما تنطق به عيناه الخالستان الواسعتان من رقة وظرف وصفاء نفسي، وما يتسم به مظهره من رشاقة وأناقة وسلامة ذوق .

وكان محيط قراءته واسماً في اللغة الإنجليزية وآدابها . وكان للشاعر العظيم سبنسر المتوفى سنة ١٥٩٩ مكانة عظيمة في نفسه، تعمق دراسته وتأثر به تأثراً شديداً، واستوعب قصيدته العظيمة أو على الأصح كتابه الشهير « الملكة الجنية » وأحاط بما فيها من خيال وجمال، وفطن إلى ما أرادته سبنسر فيها من آراء دينية وخالقية، فقد كان كل فارس من فرسانها الإثني عشر يمثل فصيلة من الفصائل، وكان كل من هؤلاء الفرسان بطل فصل من فصول القصة يدور حول معنى مقصود اتخذت الحكاية وسيلة

فتنارات سبنسر وسلفستر وشكسبير ...

فتطير روحه الوثابة فتطوى المصور إلى ربيع قديم أشبه بهذا الربيع الذي انطوى مهرجانه من قريب ، وذلك هو الربيع الإغريق فتتعم روحه برينته وقوته وسجراته وأنام مزامير ، وتحتزن ذلك نفسه كما تحتزن الزهرة الدطر ، وتحلم تلك النفس الشاعرة أحلام الحيال والجمال حتى تصرفها عن حلمها البهيج الرؤى فترة فيها كثير من الجد ولا يكاد يوجد فيها شيء من الزينة .

ملتن في الجامعة :

وفي السادسة عشرة من عمره تأهب ملتن ليدخل الجامعة فقد اجتاز الامتحان الذي يؤهله لها في يسر ، وتوق في نجاحه تفوقا ملحوظا وأقدم مزهوا ليلتحق بكبرج ، وكانت الكلية التي انتظم في سلك طلابها ، والتي لبث فيها من عمره سبع سنين هي كريست ، وسوف تقتخر تلك الكلية فيما بعد بأن كان ملتن أحد أبنائها ، ولكنها اليوم تتلقاه كما تتلقى غيره من الفتيان لا تدري ما ذا يكون غدا من أمره .

وأقبل الفتى على كليته فرحاً يداخله من الزهو ما يداخل كل فافع في مثل موقفه ؛ يحدث نفسه في حماس عما هو عسى أن ينال فيها من المعرفة ويصاحب من الأقران ؛ وما هو عسى أن يأخذ منه بقسط من المناظرة والحوار وتبادل الرأي بينه وبين أقرانه وكل أولئك حبيب إلى نفسه التواقة إلى الدرس الطلابية للعلم .

وتلفت الذين سبقوه إلى الكلية يتطلعون على عادة الطلاب إلى أقرانهم الجدد في أول الموسم ، فوقت أعينهم من بينهم على فتى أنيق اللبس ، جميل الطلعة ، حلو السم ، في قماته وسام رائعة ، وفي ملامحه أمارات الذكاء ، وفي نظراته جد يشعركبريات ، وفي عينيه تأمل وحلم ، وفي مشيته والتفاتته هدوء ودعة ، وفي نحيته رقة ودماثة .

وسرعان ما تعرف إليه فريق منهم ، فالتفتوا أن أعجبهم اتساق أفقه وحدة ذكائه ؛ وإن كانوا يرون فيه كثيرا من الاعتدال بنفسه ورأيه ، ويرون فيه كذلك حرصا شديدا ما راوا قبل مثا على قواعد السلوك واحترام النفس ، يكادون يحسونه زمنا وانقباء لا يرتاحون إليه ؛ وإن فيه ليلا قويا إلى الشعر ، يحفظ منه قد عظميا ويشير إلى مواضع الجمال فيما يحفظ ويستمتع في شفق وطرب

لإبرازه وألبسه الشعر القوي الجميل لباساً ساحراً حبيباً إلى القلوب ، وكانت شخصية الفارس الأمير أثرى هي الرابطة التي تربط بين فصول القصيدة كلها ؛ ولهذا كانت أهم شخصيات الكتاب وأحبها إلى القراء . ولقد كان - بنسر أعظم شعراء عصر شكسبير غير السرحين ، ومن أشدهم تأثيراً في جيله ، وبعد قة من القم الشوامخ في تاريخ الشعر الانجليزي كله .

وثمة شاعر آخر أقبل على قراءته الصبي المجد ، هو سلفستر المتوفى سنة ١٦١٨ أى بعد عامين من وفاة شكسبير والذي نقل إلى الانجليزية القصة الشعرية الشهيرة التي نظمها الشاعر الفرنسي دي بارتس سنة ١٥٧٨ وموضوعها يدور حول خلق الدنيا ، والتي طبعت ثلاثين مرة في ست سنوات وترجمت إلى ست لغات . ولقد أعجب سبنسر نفسه إعجاباً شديداً بهذه القصيدة وبموضوعها . ولكم وجد فيها الصبي ملتن متعة لنفسه وبخاصة موضوعها الذي ظل خياله في خاطره حتى ظهر بعض أثره فيما بعد في قصيدته الخالدة الكبرى ، الفردوس المفقود . ولقد أعجب الصبي في تلك السن بمقدرة دي بارتس الفرنسي على اشتقاق ألفاظ جديدة لمعانيه ، كما أعجب بمحاكاة سلفستر إياه في الانجليزية ، فكان لهذه الترجمة أثرها في ذوقه وفنه إلى جانب أثرها في خياله وحسه .

وتطاول الصبي إلى قراءة شكسبير فقرأه على قدر ما يتسع له إدراكه ، كما قرأ بعض السرحيات الشهيرة لشعراء السرح النابئين غيره في العصر الأليزابيثي .

وكان كثير المطالعة للإنجيل حتى وعث ذاكرته أكثر أجزائه ، وألف لفته وتذوقها وتأثر بها قلبه ولسانه .

ونهل مع هذا كله من مناهل الإغريق والرومان ، في التاريخ والأدب والشعر والميثولوجيا ، وأحب النهل الأخير حباً شديداً فكان لا يملك مهما استزاد منه ، وصارت له خبرة بهذه الناحية من خيال الإغريق والرومان قل أن يتوافى مثلها لمن كان في مثل سنه ، وسوف يمتلئ شعره منذ حدائته بالإشارات البارة إلى آلهة الإغريق وإلهاتهم فيما يعرض له من وصف فيلبسه الجمال والسحر ...

هكذا رى الصبي في أولى مراحل ثقافته ينتقل كالفراشة الطليقة بين أفواف الربيع الأليزابيثي فيبهج نفسه جمال الربيع ، ويغلا حسه افتتاح الربيع ، وترن في جوانب سمعه الحان الربيع ، وتستقر في خاطره تلك الأمضاء الساحرة الجميلة التي تجاوبت بها

واستجاب ملتن لهذه الزعة الإصلاحية ، فقد صادفت هوى في نفسه التي تمسح الحرية وتنزع إلى الاستغلال ، وتملقت بها روحه الوثابة الفتية ؛ وبدأ بها أول شوط له في الدفاع عن حرية الفكر ؛ ولكن ذلك أخذ يفض على القاعين بالأمر إذ اتهموه بالتردد والثورة إلا قليلا منهم ، وسبب له كراهة بعض أقرانه ممن لم يحبه اعوجاجهم وإسفافهم وشراسة طباعهم .

لم يدع ملتن فرصة اجتماع إلا وقف يندد بالفلسفة المدرسية معلنا أنه لا يرى فيها أية فائدة ، ولئن اقتصرت الكلية على هذا النهج فإن يكون من ورائه جدوى . وراح ملتن يسخر من تلك الكتب التي تدرس في الكلية ، والتي هي آثار أشياخ ضيق الصدر من القساوسة تنتم فيها رائحة الحجرات الضيقة المظلمة التي كتبت فيها ؛ ويتساءل : ليس أجدر بنا وأجدي علينا أن ندرس بدلا منها طبائع الكائنات الحية وأخلاق الناس وأحوال دول العالم ؟ وبوجه ملتن سها ما لا ذعة إلى مدرسي المنطق والبلاغة ، فهم يتكلمون كما يتكلم المتوحشون والأطفال ، وإنه يراهم أقرب إلى المصافير منهم إلى الرجال ...

ويعجب الطلاب من حجة هذا الفتى الذي عهدوه في مجالسهم وديما رقيق الحاشية ، وتمجبهم حماسه وجراته وصراحته وتمردته على القيود التي طال بها المهد ؛ ولكن المدرسين ساخطون عليه ناقدون على ثورته ، يرمونه بالغرور ويتهمونهم بالشغب والعناد والمعيان ، وقد شاع أمره فيهم حتى ضاقوا به ذرعا من يعلمه منهم ومن لا يعلمه .

وأدى بالضرورة مسلكه هذا إلى الشحنة بينه وبين القائم على أمره من رجال الكلية وهو « شابل » فكان يحس أن الطالب جون ملتن يحترقه بنظره ، ولعله يراه متوحشا أو طفلا أو نوعا من المصافير ؛ ويرى أنه يخالف عن أمره ، فلا يؤدي ما يطلب إليه أداؤه كتابة من دروسه ، ولا يتقيد بما يرسم له من نظام في حياته اليومية ؛ يريد أن ينصرف إلى ما يحب من قراءة ، ويعلن إلى معلمه أنه لا يقتنع بجدوى تلك العلوم التي هي آراث العصر المدرسي ، وأنه بأسف على فقدانه حريته التي نعم بها قبل التحاقه بالكلية ؛ ويرى أنه كان يجد في مدرسة سنت بول من العلم المجدي ما لم يجد مثله هنا ، ومن الحرية ما لا يجد بعضه في الكلية ، ومن عطف معلميه ومسايرتهم إياه إلى ما يحب ما لا يتمتع هنا بشيء منه .

الحبيب

(ينح)

إلى ما ينشد أقرانه مما غاب عنه ويمجج كيف غاب عنه ؛ ولما توفقت بينهم وبينه المعرفة رأوا فيه شابا يأخذ نفسه بقواعد الطهور والعفة وهو في ذلك صلب الإرادة لا يلين ولا يحيد .

وما لبث ملتن أن أحس أنه علق من الآمال على الكلية أكثر مما يريه الواقع ، فأين منه أيام قراءاته في بيته ، وأين منه حريته في هاتيك الأيام الحلوة ؛ إنه كلما ازداد صلة بالكلية أحس في نفسه النفور شيئا فشيئا من جوها ، والضيق من كثيرين من القاعين بأمرها ؛ ولكن ما من البقاء زمنا بها بد ، وما على المرء إلا أن يحمل نفسه على الصبر حتى ينقضي أمر بقاءه ... بهذا كان يتحدث الفتى إلى نفسه ، كلما ساوره من حاله ضيق أو كدر خاطره أمر .

وكانت الكلية غداة التحق بها ملتن لا تزال فيها على الرغم من النهضة بقية من العصور الوسطى ، وذلك في روحها وفي مواد دراستها ، وكانت أهم مواد الدراسة بها المنطق والبلاغة والفلسفة المدرسية ، واللغتين اللاتينية والأغريقية ، وشيء من علوم الرياضة ، وقليل من الفلك ، وقدر يسير من التاريخ الروماني ومن عجب ألا يكون التاريخ الإنجليزي ولا الأدب الإنجليزي من مواد الدراسة ، على أنه كان لمن يشاء أن يدرس هاتين المادتين أن يفعل ذلك إذا أبدى للكلية رغبته .

ولكن على الرغم من طابع العصور الوسطى ، دبّت في الكلية روح النهضة ، فشاعت فيها رغبة الإصلاح والنهوض ، وملأ جوانبها كفاح من أجل هذا الغرض ؛ وكان دعاة الإصلاح يبتغون أن يصلحوا نواحي الحياة كلها ، التعليم والسياسة والدين والاجتماع ؛ ففي التعليم رغب فريق أن تتخلص الكلية من بقية العصور الوسطى ، وتعني في مهاجها ودراساتها بما هو أقرب إلى روح العصر ، وما هو أدنى إلى الإنسانية والحرية الفكرية ؛ وفي السياسة تطلع المصلحون إلى إبراز حق الفرد والاعتراف بكيانه واحترام إرادته ؛ وفي الدين قوى الميل إلى البيوريتانية والبروتستنتية ؛ وإن كان ثمة خلاف قد دب بين الكلافتية والأرمينية ، أعني بين عقيدة القدر المحتوم التي آمن بها كلثن ، وبين عقيدة قبول التوبة وقران الذنب التي نادى بها أرمينيوس الهولندي سنة ١٦٠٣ ؛ وفي الاجتماع دعا المصلحون إلى الفضيلة وإلى عارية الرذيلة ، وظهر أثر ذلك في تشدد القاعين على أمر الطلبة ألا يسمحوا للفتيات اللاتي يتمهّن حجرات نوم الطلاب بدخول تلك الحجرات إلا إذا غادرها أصحابها .